عندما تنتقل هوليود إلى الشرق

جرت العادة في هوليود، وفي مراكز السينما الأوربية أيضاً، على الانتقال إلى العديد من مواقع التصوير في أنحاء مختلفة من العالم للبحث عن مناطق جغرافية تتناسب في طبيعتها ومناخها وعمارتها وسكانها مع شروط بعض الأفلام.

ولأن عدداً كبيراً من الأفلام الأمريكية والأوربية يتطلب التصوير في مناطق صحراوية وأراض شاسعة، أو في نقاط التقاء الصحراء بالواحات الخضراء والجبال التي تكسوها الثلوج، فضلاً عن القصص التي تدور في مدن وقرى عربية أو (شرق أوسطية)، فقد وجد الكثير من المخرجين ضالتهم منذ نشأة السينما في أرض المملكة المغربية، حتى أصبحت قبلة لصانعي الأفلام من مختلف أنحاء العالم وعلى مدار السنة. وفي السنوات الأخيرة، بدأت بعض الدول العربية الأخرى بتقديم عروضها لاستقبال صانعي الأفلام على أرضها، فنشطت تلك الصناعة أيضاً في كل من تونس والأردن، ومؤخراً في الإمارات العربية المتحدة.

ورزازات.. هوليود الصحراء المغربية

(ورزازات) هي عبارة أمازيغية مركبة من كلمتين: (وار) وتعني من دون، و(زازات) وتعني الضجيج، حيث اختار أهل المنطقة من الأمازيغ عبارة (من دون ضجيج) اسماً لمدينتهم التي كانت مجرد قرية صغيرة في عهد الاحتلال الفرنسي، ثم توسعت ونمت لتصبح واحدة من أكثر المناطق جذباً للسياحة في المغرب، نظراً لما تتمتع به من طبيعة جذابة

تجمع بين خضرة الواحات المليئة بالينابيع العذبة والجو اللطيف والجبال الشاهقة المكللة بالثلوج، وبين الأودية الجافة القاحلة وكثبان الرمال الصحراوية.

هذه الطبيعة الجميلة والمتنوعة جذبت السينمائيين أيضاً إلى واحات ورزازات وصحاريها من أوربا وأمريكا، فتاريخ السينما في هذه المنطقة يبدأ مع تاريخ السينما نفسه، حيث صنع مؤسس السينما الفرنسي (لويس لوميير) فيلمه (**لو شيفريي ماروكان**/ الراعي المغربي) عام **١٨٩٧** في ورزازات، ثم لحق به المخرج الفرنسي (لويتز مورا) لتصوير فيلم (**الدم**) عام **١٩٢٢**، وقد أحصى الكاتب الفرنسي (جورج سادول) نحو خمسين فيلماً نُفذ في المغرب قبل الحرب العالمية الثانية، أي في حقبة السينما الصامتة، وكان الكثير منها يهدف إلى تمجيد الاستعمار الفرنسي ويرسخ الصور النمطية السيئة للشرق المتخلف، لذا كانت فرق عمل هذه الأفلام أوربية بالكامل، حتى الأدوار العربية كانت تسند أيضاً إلى ممثلين أوربيين. وفي نهاية عقد العشرينيات بدأت السينما الألمانية والبريطانية والأمريكية بالانتباه أيضاً إلى الإمكانيات الطبيعية والجغرافية لهذه المنطقة، ثم توسع الإنتاج بغزارة أكبر بعد الحرب العالمية الثانية لتصبح ورزازات واحدة من أشهر مناطق الجذب السينمائي في العالم.

وبعد وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام **٢٠٠١** وبدء ظاهرة أفلام (الحرب على الإرهاب) دخلت ورزازات مرحلة جديدة من تاريخها، وأصبحت المنطقة الأوفر حظاً لتصوير جميع المشاهد التي تتطلب وجود صحارٍ وأراضٍ مفتوحة كالمعارك والأحداث التاريخية، كما أصبحت بقية المناطق والمدن المغربية القبلة المفضلة لكل من يريد أن يصور فيلماً عن **الشرق الأوسط**، حتى بلغ معدل ما يتم تصويره في المغرب قبل نهاية هذا العقد ما بين عشرين إلى ثلاثين فيلماً طويلاً كل عام، عدا الأفلام

الإعلانية والوثائقية والبرامج التلفزيونية، كما ارتفع رقم معاملات تصوير الأفلام من نحو ٢٥ مليون دولار عام ١٩٩٧ إلى أكثر من ٢٤٠ مليوناً عام٢٠٠٧[١]. ويقال: إن هذا الرقم قد اقترب من المليار دولار في نهاية عام [٢]٢٠٠٩.

تقدم السلطات المغربية من خلال المركز السينمائي المغربي تسهيلات كبيرة لفِرق الإنتاج السينمائي الأجنبية، مثل تسهيل الاستيراد المؤقت للأسلحة والذخائر والمتفجرات، وتخفيض تكاليف النقل والمبيت والتصوير في الأماكن التاريخية، والإعفاء من الضريبة على جميع الممتلكات، مما ساعد على تخفيض كلفة الإنتاج بنسبة تقترب من الثلث بالمقارنة مع مثيلاتها في أوربا والولايات المتحدة، وقد ساعدت هذه البيئة النشطة على توجه العديد من رجال الأعمال للاستثمار في المنطقة وإنشاء شركات الإنتاج والاستوديوهات الضخمة بمواصفات عالمية مثل استوديو (أطلس كوربوريشن)، كما سمح هذا التوجه لسكان المنطقة باحتراف العمل في مختلف المهن التي يتطلبها الإنتاج السينمائي.

من يدفع الضريبة؟

ينشط في مدينة ورزازات عدد من السماسرة ووكلاء شركات الإنتاج الأجنبية للبحث عن (اليد العاملة) المحلية الرخيصة، أو بعبارة أدق للبحث (عن الوجوه العاملة) لتصويرها في الأفلام السينمائية ضمن أعداد كبيرة من (الكومبارس)، حيث تكاد تكون المهنة الوحيدة لمعظم سكان المدينة البالغ عددهم ١٧ ألف نسمة، وقد أدى انخفاض الأجور وتوافر المواهب المحلية إلى اكتفاء بعض المخرجين الأجانب بالممثلين المغاربة

(١) جريدة البيان، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٨.

(٢) العربية نت، ٢٢/ ١/ ٢٠١٠.

حتى في الأدوار المهمة، بدلاً من جلبهم من الخارج، إذ لعب المغاربة الأدوار كافة باستثناء دور البطولة في الفيلم الإيطالي (**حدائق الجنة**/لي جاردن ديدن) الذي أنتج في نهاية التسعينيات.

ولتعريف العالم بحقيقة ما يجري هناك قدم المخرج المغربي **محمد الصافي** عام **٢٠٠١** فيلمه الوثائقي (**ورزازات موفي**)، الذي ينقل فيه بالصوت والصورة معاناة سكان هذه المنطقة على الرغم من الصورة الجميلة التي يحرص آخرون على نقلها. فنرى في الفيلم صفوفاً طويلة من السكان الفقراء وهم ينتظرون دورهم لأداء الاختبار أمام لجنة اختيار الممثلين، أو لمعرفة نتائج الاختبار التي ينتظرونها بفارغ الصبر. كما يجري الفيلم مقابلات مع العديد من الممثلين الكومبارس للتحدث عن تجاربهم، والذين يبدون استعدادهم للقيام بالأدوار المطلوبة كافة، وهي تتنوع بين أدوار الجنود والخدم والحرس، أو حتى تكوين جيوش من البشر الذين يملؤون موقع التصوير إذا دعت الحاجة حسب رؤية المخرج.

أما الممثلون ذوو الخبرة الطويلة فيطمحون إلى القيام بأدوار ثانوية أو النطق ببعض العبارات كي يتحولوا إلى ممثلي (كومبارس) من الدرجة الأولى، وربما يتدرجون في التقدم مع الوقت ليصبحوا ممثلين أكثر احترافاً وشهرة.

ويتحدث ضيوف الفيلم من الممثلين الشباب والمسنين عن معاناتهم المادية التي لا تغطيها أجورهم الزهيدة، فضلاً عن شعورهم بالغبن، حيث يقول أحدهم أمام الكاميرا: «لقد عملت في أحد عشر فيلماً للمخرج نفسه، ولم يقل لي شكراً ولو مرة واحدة، إنهم يطلبون منا فقط أن نصفق للبطل»!

وحسب استطلاع أجرته مجلة العربي الكويتية، فإن أجر ممثل (الكومبارس) الواحد يبلغ نحو **٢٠** دولاراً فقط بعد أن يقتطع السماسرة

والوكلاء المحليون قرابة الثلث من أجورهم، علمًا بأن عملهم قد يتطلب الحضور في مواقع التصوير من طلوع الشمس إلى ما بعد الغروب[١].

أما الضريبة الكبرى فتدفعها شعوب كاملة من العرب والمسلمين مع كل فيلم يُنتج على أرض المغرب وهو يحمل الصور النمطية السيئة لهذه الشعوب إلى العالم كله، في الوقت الذي يخرج فيه بعض الممثلين والفنيون ووكلاء (الكومبارس) بأجورهم العالية دون اكتراث بما يدفعه الآخرون من ضريبة، وهو سلوك يذكرنا بالسمعة السيئة لوكلاء النجوم في هوليود، إذ يتداول الأمريكيون نكتة تتحدث عن طبيب متخصص بأمراض القلب يخبر أحد المرضى بحاجته الماسة إلى عملية زرع قلب لإنقاذ حياته، ثم يطمئنه بأن لديه قلبين جاهزين لعملية الزرع ويعودان إلى شخصين توفيا حديثاً في حادثين مروريين، أحدهما بطل رياضي شاب في العشرين من العمر، أما الآخر فهو وكيل لنجوم هوليود في السبعين من العمر، فيختار المريض القلب الثاني، ويسأله الطبيب مندهشاً: ولماذا تفضل قلب هذا العجوز على قلب الرياضي الشاب؟ فيجيب: لأني أريد قلباً غير مستعمل!

وإذا كان الأمر كذلك، فإن المسؤولية هنا لا تقتصر على الوكلاء فحسب، بل نتساءل عن دور المركز السينمائي المغربي وغيره من أجهزة الدولة المغربية في مراقبة ما يجري تصويره على أرض هذا البلد العربي المسلم، وأيضاً عن دور الصحافة المغربية ذات الهامش الواسع من الحرية، فضلاً عن أصوات أعضاء البرلمان المغربي المعروف بتعدد أطيافه وجرأته على المساءلة، وسنستعرض فيما يلي نماذج لبعض الأفلام التي صورت في (أرض المرابطين) على نحو يستحق طرح هذه التساؤلات.

(١) مجلة العربي، العدد ٥٤٤، آذار/مارس ٢٠٠٤، ص ٦٦.

نماذج للأفلام التي صورت في المغرب:

١- فيلم (باتون/Patton)

أنتج هذا الفيلم سنة **١٩٧٠**، وهو يحكي قصة الجنرال الأمريكي (جورج س. باتون) خلال الحرب العالمية الثانية، والذي يكتشف خلال الحرب أنه يتقمص جميع القيم الحضارية التي عرفها أسلافه منذ آلاف السنين. في الوقت الذي يفسر فيه ما يراه لدى العرب من صفات وحشية ومتخلفة على أنها امتداد أيضاً لقيمهم القديمة! فعندما يرى النساء العربيات وهن يجردن جثث جنود الحلفاء في تونس من ملابسهم ويسرقن حاجياتهم يستعيد (باتون) صوراً مشابهة في خياله الموسوعي، وكأنه كان شاهداً على تاريخ المنطقة نفسها منذ آلاف السنين فيقول: «في هذا المكان كان القرطاجيون يدافعون عن المدينة أمام ثلاث فصائل رومانية قاتلت بشجاعة، ولكنهم لم يتمكنوا من المقاومة فكانت المذبحة، النسوة العربيات أخذن ملابسهم وبقي الجنود عراة في الشمس منذ ألفي عام.. لقد كنت هناك»، ومن المؤسف أن يصُوّر هذا الفيلم الذي يحقر العرب في حاضرهم وماضيهم على أرض المغرب ليحصد فيما بعد سبع جوائز أوسكار، كان من بينها جائزة أفضل فيلم وأفضل مخرج وأفضل (سيناريو) أصلي[١].

٢- سلسلة أفلام المومياء:

أنتج فيلم المومياء عام **١٩٣٢** بإمكانيات وخدع متواضعة، ثم أعيد إنتاجه مع الكثير من التعديلات للاستفادة من التقنيات التكنولوجية الحديثة على يد (ستيفن سومرز) الذي كتب قصته وأخرجه عام **١٩٩٩**، مسنداً

(١) أحمد رأفت بهجت: العرب.. ٨٠ عاماً مع (الأوسكار)، مجلة العربي، تموز/ يوليو ٢٠٠٨.

أدوار بطولته إلى كل من (برندان فريزر) و(راشيل وايسز)، وتدور قصته حول أسطورة وقوع الكاهن المصري القديم (إيمحوتب) في حب ابنة الفرعون (سيتي الأول)، ومن ثم قيام الفرعون بقتل ابنته والحكم على الكاهن بالدفن حياً، لتلتقي عالمة الآثار البريطانية (إيفلين) بعد قرون طويلة بمواطنها (ريتشارد) الباحث عن كنوز مصر ويحاول كل منهما الاستعانة بالآخر لتحقيق أهدافه في الوصول إلى المدينة المفقودة، وعندما تقرأ (إيفلين) تعويذة سحرية من كتاب الموتى عن طريق الخطأ، تعود الحياة إلى الكاهن إيمحوتب، والذي يبدأ سلسلة من أعمال القتل التي يسعى إلى تتويجها بخطف (إيفلين) وإحلال روح حبيبته ابنة الفرعون في جسدها، وهنا يأتي دور (ريتشارد) لإنقاذها بعد صراع مع جيش من المومياوات، وفي النهاية ينتصر العرق الأبيض وتُقتل مومياء الكاهن إيمحوتب التي لم تكتمل فترة حياتها الثانية، ويأتي السكان الأصليون إلى البطل البريطاني لشكره على تحريرهم من هذا الخطر الذي ظل كامناً طوال قرون، لنفاجأ بأن هؤلاء السكان ليسوا من العرب المصريين، بل هم بنو إسرائيل الذين يتحدثون بالعبرية، ويمثل دور قائدهم الممثل الإسرائيلي (عوديد فهر/ oded fehr) المولود في تل أبيب والضابط السابق في سلاح البحرية الإسرائيلي، والذي احتشد خلفه العشرات من سكان ورزازات لتشكيل جيوش اليهود المدافعين عن أرض مصر!

أما الجزء الثاني من الفيلم والمسمى بـ(عودة المومياء/ The Mummy Returns) فكان من أكثر الأفلام استعراضاً للمؤثرات الخاصة عندما عُرض في سنة ٢٠٠١، مما أكسبه المركز الأول في شباك التذاكر الأمريكي منذ أسبوع عرضه الأول، إذ بلغت عائداته ٧٠,١ مليون دولار، فاستحقت حينئذ لقب ثاني أعلى عائدات يسجلها فيلم في أسبوع، ويسبقه في ذلك فيلم (The Lost World: Jurassic Park) للمخرج (ستيفن

سبيلبيرغ) عام١٩٩٧[١]، والذي تم تصوير بعض مشاهده في كل من المغرب والأردن ومصر.

يتابع الفيلم في هذا الجزء القصة نفسها، حيث يعود البطلان الإنجليزيان إلى مصر بعد أن أصبحا زوجين مع ولدهما العبقري، وتبدأ مهمة العائلة بالبحث عن السوار السحري للملك العقرب الذي يقال: إنه حكم مصر قبل الفرعون (مينا الأول)، وبعد العثور عليه تبدأ المعركة مع مومياء إيمحوتب وجيشه لمنع الملك العقرب من العودة إلى الحياة من جديد، وتبرز المواهب البطولية لكل من الإنجليز واليهود على أكثر من صعيد، ففي الوقت الذي يستبسل فيه اليهود لمحاربة جيوش الهياكل العظمية من حراس الفرعون، تتحول عالمة الآثار (إيفلين) إلى محاربة بارعة لمواجهة ابنة الفرعون، إلى جانب زوجها الذي يقاتل مومياء إيمحوتب، في حين يتفرغ ابنهما العبقري لحل اللغز، ليُقتل الملك العقرب أخيراً برمح إيزيس الذي يحمل نجمة سداسية.

يُذكر أن أجهزة الرقابة المصرية كانت قد منعت الجزء الأول من الفيلم من العرض في الدور المصرية، لما يتضمنه من صور نمطية مسيئة للمصريين؛ فهم إما متخلفون أو عملاء خونة يسهل إغراؤهم بحفنة من المال، فضلاً عن التأكيد على دور اليهود في بناء مصر القديمة وظهورهم في صورة المنقذ للبلاد!

إلا أن الرقابة نفسها وافقت فيما بعد على عرض الجزء الثاني من الفيلم (عودة المومياء) عام ٢٠٠١ إثر حوار مفتوح بين النقاد في عرض خاص، حيث رأى المعارضون أن الفيلم يتضمن إساءة واضحة إلى الحضارة المصرية، وإظهار مصر على أنها أرض مليئة بالشر والسحر، واستخدام المخرج رموزاً ماسونية كالهرم الذهبي والنجمة السداسية،

(١) موقع الجزيرة نت، ١٧/ ٥/ ٢٠٠١.

وتقديم فكرة خاطئة عن مصريي عام **١٩٣٣** بأنهم جهلة متخلفون. في حين رأى المؤيدون أن الفيلم سخيف ولا يستحق الاهتمام، وأنه مجرد عاصفة من المؤثرات الخاصة التي لا تتجاوز فكرة إبهار المشاهد[١]، وهو الرأي الذي أقنع الرقابة المصرية، وسمح بتكرار عرض الفيلم بكل أجزائه على قنوات مجموعة (mbc) على مدى سنوات، وقد أدى بالفعل إلى إبهار المراهقين ذوي الثقافة المحدودة؛ فوضعوا العديد من المقالات والتعليقات على شبكة الإنترنت للتعبير عن إعجابهم بهذا الفيلم الذي (يمجد الحضارة المصرية)!

ولعل آراء كهذه تقف أيضاً خلف عرض المسلسل الكارتوني (المومياء) الذي يحكي القصة نفسها، وبكل ما فيها من صور مسيئة على قناة (mbc3)، علماً بأن هذا المسلسل لم يلق النجاح في وطنه أمريكا عندما عرض الجزء الأول منه سنة **٢٠٠١**، بل أدى إخفاقه إلى توقف عرض الجزء الثاني منه سنة **٢٠٠٣**، وعدم طرحه في الأسواق على أقراص (DVD)!

٣- **فيلم هيدالغو** (Hidalgo):

يتحدث الفيلم عن سباق للخيل جرى سنة **١٨٩٠** برعاية شيخ قبيلة بدوية في اليمن (الشيخ رياض ويجسده الفنان **عمر الشريف**)، ويعود بنا الفيلم المنتج حديثاً (سنة **٢٠٠٤**) إلى سخافات هوليود التقليدية الأولى في العقد الثاني من القرن العشرين، حيث لم تكن تتجاوز معرفة عامة الناس في الغرب عن الشرق أساطيرَ ألف ليلة وليلة، وشظف عيش البدو في صحراء تشح فيها الماء، وحسناوات يتلهفن لمقدم (الكاوبوي) الأبيض لإنقاذهن من حياة الحريم، لذا يبدو من غير المفهوم إعادة تصوير الشرق

(١) المرجع السابق.

العربي بهذه الرؤية الاستشراقية الحمقاء في القرن الحادي والعشرين، وبمباركة عدد كبير من الممثلين و(الكومبارس) العرب وعلى أرض عربية!

يقبل راعي البقر الأمريكي (هوبكنز) دعوة الشيخ البدوي للمشاركة في السباق بدافع مساعدة إحدى قبائل الهنود الحمر التي صودرت خيولها من قبل الجيش الاتحادي، وتقع عينه في لحظة وداع بلاده على تمثال الحرية، في حين تستقبله بلاد العرب بمشهد العبيد المقيدين بالسلاسل[١]، ثم توكل مهمة الاعتناء به وبحصانه إلى العجوز السخيف (يوسف) بعد أن خيره قومه بين قطع يده أو خدمة الضيف الأمريكي جزاء لسرقته بعض الحليب[٢]. وعندما يدخل (هوبكنز) الخيمة يرفض الشيخ رياض مصافحته خشية أن يفقد قدرته على التنبؤ بالمستقبل بمجرد ملامسة يد شخص (كافر)، ثم يخبره الشيخ بأن عنايته بالخيول نابعة من اهتمام القرآن بها مما يدفعه إلى إجبار نسائه على النوم وقوفاً في الليالي الباردة ليتمكن حصانه (الحتال) من النوم في الخيمة.

يُقدم الفيلم عقيدة الإسلام بطريقة لا تُقنع أشد الناس حمقاً، وأخشى أن يكون هذا مألوفاً لمشاهدي مثل هذه الأفلام في الغرب، فالبدو يؤمنون بأن مشاركة ضيفهم (الكافر) في السباق تدنيس لهم، وأن الشمس لا بد أن تحرقه قبل وصوله إلى خط النهاية، كما يؤمنون بأن القدر قد

(١) تؤكد الإحصاءات أن السكان الإفريقيين المتحدرين من سلالات الرقيق في شبه الجزيرة العربية لا يشكلون واحداً في المئة من السكان الحاليين، في حين تم تهجير عشرات الملايين إلى الأمريكتين ليشكل الوجود الإفريقي في البرازيل وحدها حالياً نحو مئة مليون! [للمزيد عن هذا الموضوع انظر الاستطلاع الذي أجرته مجلة العربي في زنجبار، العدد ٥٧٦، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦].

(٢) تغيب عن العقل الاستشراقي السطحي حقيقة أن قطع يد السارق لا يطبق في حق المساكين وفي قبائل تعاني القحط والفقر، كما لا يجوز استبدال الحد الشرعي بأداء أي خدمة أخرى كرعاية الضيوف مثلاً!

صنف الناس مسبقاً إلى رابحين وخاسرين ولا جدوى من مقاومته، فعندما يقع الفارس (الصقر) في بركة من الطين ويشرف على الغرق ويهب (الكاوبوي) لنجدته يؤكد له البدوي المؤمن أن هذه رغبة الله ويتوسل إليه أن يقتله، ولكن البطل المستنير يصر على إنقاذه ويشرح له أن المكتوب يتحقق عندما ينفذ إرادته هو وحصانه للفوز بالسباق، وليس بالاستسلام[١]. أما النقاب على وجه ابنة الشيخ (جزيرة) فلا نجد له تفسيراً سوى في قولها: «أنت لا تفهم عالمنا»، وهو عالم لا نفهمه نحن أيضاً خصوصاً عندما تشكو الفتاة العربية المقموعة إلى مخلصها الأمريكي عزم والدها على تزويجها من (ابن الريح)؛ الممثل المغربي **سعيد طغماوي**، في حال فوزه بالسباق لتصبح زوجته الخامسة، وليس الرابعة! وعندما يقتحم الشيخ ورجاله خيمة ضيفهم الأمريكي ويجدون (جزيرة) عنده، نكتشف مرة أخرى أحكاماً جديدة في الشريعة لم نسمع بها من قبل، إذ يُحكم عليهما بحد الزنا مع أنهما كانا يتجاذبان أطراف الحديث لا أكثر، ولأن الرجم لا يُطبق على الزانية إلا بعد أن يغرقها

(١) هذه العقيدة التي ترد على لسان الكاوبوي الأمريكي هي بالضبط خلاصة مفهوم الإيمان بالقدر لدى المسلمين منذ صدر الإسلام، وهي التي نفهمها من قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٣]، ومن الحديث الشريف: "اعقلها وتوكل"، أما هذا التواكل فلم نسمع بسيطرته على عقول المسلمين حتى في أكثر عصورهم انحطاطاً! وخصوصاً عندما يصل إلى درجة إقدام أحد المتسابقين على قتل فرسه فور إصابته بجرح في ساقه خلال السباق، أو عندما نكتشف أن أصل هذا التخلف يعود إلى القرآن عندما يشرح لنا (الصقر) أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وعليه فلا يجوز للمسلم حتى أن يحاول الفرار من الموت!.. وأتساءل هنا كيف يُصدق المشاهد الغربي إمكانية بقاء شعب على قيد الحياة طالما ظل يؤمن بعقيدة كهذه، والتي لا بد أن تستلزم الامتناع حتى عن التداوي في حال المرض؟!

والدها فستُعفى من هذه الميتة البشعة لعدم وجود الماء ويُكتفى بجلدها سبع جلدات، في حين يُقطع عضو الزاني[١]، ولكنهما ينجوان في اللحظة الأخيرة -كما هي عادة هوليود- عندما يقتحم الخصم اللدود (كاتب) مع رجاله مضارب القبيلة ويخطفون (جزيرة)، ليقع الشيخ في حيرة إزاء مبادلة ابنته المخطوفة بحصانه الأصيل، ويقرر أخيراً أن الحصان أغلى من العائلة، مع علمه بأن الخاطف سيسلم ابنته العذراء إلى الغجر ليعبثوا بها.

تأتي براءة البطل الأمريكي أخيراً عندما يجبن جميع الفرسان العرب الذين نشؤوا على القتال عن إنقاذ الأميرة، في حين يحارب (الكاوبوي) مع حصانه مثل (زورو) مع أنه لم يخض معركة من قبل، فيقتل كتيبة من الرجال، ويعيد (جزيرة) إلى قبيلتها، ثم ينتصر في الجولة التالية من السباق وينجو من كل المؤامرات التي تحاك لقتله في مجاهل الصحراء، ويعالج حصانه الأسطوري (هيدالغو) من جراحه في حين يهلك الآخرون، ولا يفوت المخرج فرصة لتشويه كل ما يمت إلى الشرق بصلة فحتى البيئة تبدو في غاية القبح، فتارة تغرقها عاصفة رملية أسطورية لا يتمكن سوى الأمريكي من مقاومتها بذكائه، وتارة يغزوها سرب من الجراد الذي يغطي الشمس، فضلاً عن حرارتها الرهيبة وجفافها الدائم وعقاربها المرعبة، بل لا ينجو حتى الحيوان من العنصرية عندما تنهزم الخيول العربية، التي يتنافس فرسان العالم على سلالتها الأصيلة، أمام (هيدالغو) الذي لم تطأ حوافره أرض الصحراء القاحلة من قبل!

(١) حددت الشريعة حد البكر بمئة جلدة، وحد المحصنة (المتزوجة) بالرجم، ولكن الحد لا يطبق إلا في حال اعتراف الفاعل بفعله، أو أن يراه أربعة شهود عدول رأي العين وبطريقة لا تترك مجالاً للشبهة والشك، وهو ما لم يقع في التاريخ الإسلامي كله.

وبعد فوزه في السباق، يقدم البطل للشيخ مسدسه الثمين الذي كان مرهوناً في حال خسارته للدلالة على كرمه الأصيل، ويتعلم الشيخ من الأمريكي، الذي طالما وصفه بالكافر، عقيدة الإيمان بالقدر على النحو الصحيح، ويصافحه مقراً بعجزه عن قراءة الغيب حيث لم ينجح في التنبؤ بنتيجة السباق. ثم يودع البطل الوسيم الفتاة التي وجدت الخلاص على يديه وخلعت بفضله الحجاب[١]، ويتواضع الجميع أمام انتصار عظمته ويكتشفون للمرة الأولى خطأهم في تدنيس ذلك الكافر الذي لم ينجحوا في إرسال روحه وروح حصانه إلى الشيطان.

يعود البطل مجللاً بهالة من القداسة ومحملاً بجائزته الثمينة إلى بلاده ليشتري بها كل الخيول المصادرة من الهنود الحمر ويعيد إليها حريتها، ثم يبلغ النبل مداه ويطلق حصانه (هيدالغو) أيضاً، لتجري أسراب من الخيول في السهول الخضراء وتنشر في الآفاق رسالة الحرية التي جاء بها الرجل الأبيض إلى العالم أجمع، ويعود البطل القنوع خالي الوفاض بعد أن لقّن الناس في الشرق والغرب كيف تكون محاسن الأخلاق.

الفيلم مليء بنماذج يصعب حصرها للصور النمطية والأكاذيب المغرقة في العنصرية والسخف والتمجيد الكاريكاتوري للعرق الأبيض، حيث لا نجد صفة إيجابية تُذكر للعرب أو لدينهم، حتى لدى الشيوخ الطاعنين في السن الذين يتوسم فيهم الناس الحكمة والحلم، في حين ينافس البطل

(١) يصر الفيلم على إظهار البطل الأمريكي في صورة الرجل العفيف، فهو لا يكترث لإغراء سيدة أرستقراطية بريطانية جاءت للمنافسة في السباق، كما يتعامل مع (جزيرة) التي ينقذها من خاطفيها بالرغم من خلوتهما في الصحراء بأخلاق لا تذكرنا سوى بالصحابة، وهو ما يثير إعجاب الفتاة التي لم تر مثل هذا الرقي فتتوسل إليه أن يرفع النقاب عن وجهها، حيث لم ينظر إليها أحد من قبل بمثل هذه النظرة الطاهرة، وهي نظرة تختلف كثيراً عن تلك التي يقدمها (الكاوبوي) على أرض الواقع في العراق!

الأبيض في سموه أخلاق الأنبياء[١]. ومن المثير للدهشة حقاً أن يعاد إنتاج مثل هذه الأفلام في عصر العولمة حيث يمكن لطفل في السادسة أن يتعرف حقيقة الإسلام بكبسة زر على حاسبه الشخصي، ولا ندري إن كانت هذه الحقيقة التي غيّبها صانعو الفيلم عمداً -على الأرجح- قد غابت أيضاً عن **عمر الشريف وسعيد طغماوي**، أم أن هناك مبررات لا نعرفها تجيز لهما ولفريق العمل المغربي المشاركة في فيلم يحقر العرب والمسلمين جميعاً على هذا النحو الجارح[٢].

٤- فيلم المصارع (Gladiator):

يعرض هذا الفيلم التاريخي قصة قائد الجيش الروماني (ماكسيموس)؛ الممثل النيوزيلندي (رسل كرو)، الذي يعتزم الإمبراطور (أوريليوس) نقل سلطاته إليه، فيسارع ابن الإمبراطور (كومودوس) إلى قتل أبيه طمعاً في السلطة، ويفر (ماكسيموس) بجلده قبل أن يُقتل، فيعلن الإمبراطور الشاب البحث عن القائد المتمرد ويقتل زوجته وولده. وبعد العديد من الصعاب، يجد (ماكسيموس) نفسه أسيراً لدى البدو في شمال إفريقية، ويباع في روما عبداً مملوكاً ليقوم بدور المصارع (Gladiator) الذي يقاتل حتى الموت في مسارح الرومان. ومع أن الفيلم مليء بالأخطاء التاريخية، إلا

(١) نحن لا ننكر صحة الكثير مما يرد من النقد في حق البدو، ويكفي ما ورد من وصف للأعراب في القرآن الكريم، ولكن العنصرية والتحقير أمر لا يجوز في حق أي شعب أو عرق أو دين، وخصوصاً عندما يصر الغرب على إلصاق صفات البداوة بالمسلمين والعرب جميعاً، بل وصل الأمر بصانعي هذا الفيلم إلى تصنيع بطل أمريكي مهجن؛ من أب أوربي وأم من الهنود الحمر، ليجمع في دمه نبل البيض وشجاعة السكان الأصليين وهما صفتان يُحرم منهما العرب بالإكراه!

(٢) يُذكر أن هذا الفيلم عُرض مترجماً على إحدى قنوات (mbc)، ومن الطريف أن يتزامن عرضه في إحدى المرات مع عرض فيلم (العودة إلى مناجم سليمان) بكل ما فيه من إساءة على قناة أخرى من طاقة هذه المجموعة العربية.

obeikandl.com

أن إقحام العرب، أو الأمازيغ، في الفيلم لم يكن له أي مبرر سوى الإساءة، فضلاً عن كونها أكذوبة تاريخية، إذ يقصر حضور المغاربة على دور اللصوص ذوي الملامح القبيحة والقلوب القاسية، والذين يخطفون المقاتلين الأقوياء لبيعهم إلى تجار العبيد وإجبارهم على القتال الدموي في مسارح روما للترفيه عن الناس.

وقد صُوّر هذا الفيلم أيضاً في المغرب عام ٢٠٠٠، وهو من إخراج البريطاني (ردلي سكوت)، الذي أخرج لاحقاً فيلم (مملكة السماء)، وكان جميع ممثلي (الكومبارس) وتجار العبيد الملتحين والمعمّمين من السكان المحليين!

٥- فيلم قواعد الاشتباك (Rules of engagement):

هو من أكثر الأفلام إساءة إلى العرب والمسلمين في تاريخ هوليود على الإطلاق، فهو ليس مجرد فيلم يحكي قصةً عن الإرهاب أو يكرس الصور النمطية لشعب بأكمله، بل يتجرأ بخبث على تبرير المجازر في حق المدنيين من المسلمين!

تعود قصة الفيلم إلى وزير البحرية الأمريكية الأسبق (جيمس ويب)، وتدور حول محاصرة مجموعة من المدنيين اليمنيين مقرّ السفارة الأمريكية في صنعاء، حيث يفاجأ المشاهد برجال البحرية الأمريكية من المارينز، بقيادة الممثل الأسود ساموبل ل. جاكسون، وهم يمطرون الشعب الأعزل من الرجال والنساء والأطفال المحيطين بالسفارة بوابل من الرصاص، وقبل أن يتعاطف المشاهد مع الضحايا الأبرياء، تبدأ (العدالة الأمريكية) بأخذ مجراها النزيه في الأحداث، فيتولى المحقق (الممثل تومي لي جونز) التحقيق في الأمر، ويُفاجأ بطفلة صغيرة تسير على ساق واحدة من ضحايا تلك المجزرة، فيتبعها ليجد مستشفى في الهواء الطلق يضج

بالجرحى، ويعثر بمحض المصادفة تحت أحد الأسرّة على شريط فيديو يحمل رسالة مسجلة لخلية إرهابية، وما إن يصحُ المحقق من وقع المفاجأة حتى يعيد المخرج عرض المشهد مع الحقيقة الكاملة، حيث يطلق المدنيون اليمنيون النار على السفارة الأمريكية فيضطر جنود المارينز إلى الدفاع عن أنفسهم، ثم تُركز الصورة على وجه الطفلة البريء الذي تعاطفنا معه في البداية، لنراها تشارك بقية (الإرهابيين) من النساء والرجال والشيوخ في إطلاق النار على الأمريكيين بمسدسها الصغير! وتنتهي المجزرة باستعراض جثث القتلى والنساء الثكالى يلطمن الوجوه، في مشهد مشابه تماماً لما نراه في نشرات الأخبار والأفلام الوثائقية من مجازر حقيقية تُرتكب في حق المدنيين في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها، وينجح الفيلم في حقن الجزء اللاواعي من عقل المشاهد بمصل المناعة ضد أي تعاطف مع أمثال هؤلاء الضحايا؛ بتحريضه على استحضار الصورة النمطية للشعب المسلم بنسائه وشيوخه وأطفاله وهم يطلقون النار قبل، أن يرتكب الأمريكيون أو (الإسرائيليون) في حقهم أي مجزرة مهما بلغت بشاعتها!

الفيلم مليء أيضاً بالصور النمطية المتعمدة، ففي العمق تتكرر مشاهد المآذن وأصوات الأذان وصور النساء المنقبات، وكل ما من شأنه الربط بين الإسلام والإرهاب، وقد لقي الفيلم إقبالاً كبيراً في دور العرض وتصدَّر لائحة شباك التذاكر الأمريكي لعدة أسابيع بعائدات بلغت حتى نهاية الأسبوع الثاني أكثر من ١٠ ملايين دولار.

أما الحقيقة الأكثر إيلاماً فهي تصوير هذا الفيلم في المغرب الشقيق بكل ما فيه من إساءة وتشويه، وقيام (الكومبارس) المغاربة بأدوار الإرهابيين مرة أخرى، علماً بأن بعض الجاليات اليمنية والعربية في الولايات المتحدة نظمت مظاهرات احتجاجية لإدانة الفيلم خلال عرضه

في أكثر من ولاية، وتسبب الفيلم آنذاك بأزمة دبلوماسية أحرجت السفيرة الأمريكية في صنعاء، وترك أثراً عميقاً في نفوس كل من شاهده من العرب والمسلمين.

٦- **فيلم سقوط الصقر الأسود** (Black Hawk Down):

في عام ٢٠٠١؛ قدّم البنتاغون الدعم المباشر للمخرج (رِدلي سكوت/ Ridley Scott) لإنجاز فيلم يحكي قصة المحاولة الفاشلة لإسقاط الجنرال الصومالي (محمد فرح عيديد) من قبل الأمريكيين عام ١٩٩٢، حيث يبدأ الفيلم بمقدمة مهمة تبرر دخول الأمريكيين إلى القرن الإفريقي، فالصوماليون متورطون في حرب أهلية، ومليشيات عيديد تسيطر على البلاد بالحديد والنار، مما أجبر حماة الحرية الأمريكيين على التدخل ضمن قوات دولية أخرى بهدف إحلال السلام ولدوافع إنسانية(!).

تقوم قصة الفيلم على مهمة يضعها قائد القوات الأمريكية لاقتحام المبنى الذي يحتمي بداخله عيديد وأتباعه، وتنتهي بالإخفاق الذريع ثم الانسحاب من المنطقة بأكملها بعد فترة وجيزة، حيث تقتضي الخطة إنزال عدد من الجنود بالمروحيات، من فرقتي «دلتا» و«الفرسان» عاليتي التدريب، في منطقة مليئة بأتباع عيديد للسيطرة على مقر سلطته. وقبل أن تبدأ المجازر في حق المدنيين؛ يصرح قائد الكتيبة الشاب في بداية الفيلم بأنه يحترم الصوماليين لكونهم فقراء وغير متعلمين، كي يحسن المشاهد الظن بنيات الأمريكيين منذ البداية.

يظهر دور (المسلمين الأخيار) في الفيلم مع تعاون أحد الصوماليين مع القوات الأمريكية لإرشادهم إلى موقع المقر، ولكن المليشيات تنجح في اكتشاف المهمة بأساليب مراقبتها البدائية وتمطر الأمريكيين بالرصاص والقنابل، ثم تنجح مجدداً في إسقاط إحدى طائرات الهليكوبتر (الصقر

الأسود) لتتحول المهمة إلى إنقاذ الجنود العالقين في أكثر الأحياء خطورة، وعندما تتوجه الهليكوبتر الأخرى لإنقاذهم يتم إسقاطها أيضاً، فيتورط الجنود في قتال الشوارع حتى صباح اليوم التالي، وتنتهي الأحداث بأسر أحد الطيارين ومقتل تسعة عشر أمريكياً، في مقابل ألف صومالي!

يعدّ هذا الفيلم من أكثر إنتاجات هوليود إساءة وتنميطاً لصورة (الإرهاب الإسلامي) وأكثرها تمجيداً للجيش الأمريكي. فالصوماليون ليسوا أكثر من حشود متخلفة متعطشة للدماء، بل إن التفاوض لديهم مرادف للقتل، كما يرد على لسان أحد قادتهم، وهم أفضل من تتوافر لديهم مجموعة الصور النمطية السيئة التي اعتادت هوليود على إلصاقها بالشعوب، من سواد البشرة والدين الإسلامي والفقر والتخلف فضلاً عن **الإرهاب**، إذ نراهم ينصرفون إلى الصلاة في أثناء القتال، ويبيعون الأسلحة في الشوارع كما تباع الخضراوات، وينقضون كالذئاب على الجنود الأمريكيين. كما تعمد الفيلم توريط المدنيين في العنف، فحتى النساء والأطفال يحملون السلاح، وعندما يرى المشاهد أحدهم يُقتل برصاص أمريكي فسيبرر لاشعورياً هذه المجزرة، بل لن يبالي بمأساة أحد الصوماليين وهو يجري حاملاً طفله القتيل بيديه، وقد يسرّ كثيراً لرؤية ذلك القطيع من الزنوج وهم يتساقطون بالجملة برصاص الجيش الأمريكي.

والأهم من ذلك كله هو أن هذه الدعاية المجانية لتبرير محاولة الأمريكيين احتلال منطقة القرن الإفريقي، وتطويق منطقة الخليج، والسيطرة على منفذ استراتيجي للبحر الأحمر المطل على قناة السويس قد تم تصويرها مرة أخرى على أرض عربية، وبمشاركة حاشدة من ممثلين عرب، وأن توقيت عرض الفيلم في عام ٢٠٠١ قد تزامن مع تصاعد

تهديدات الإدارة الأمريكية بضرب الصومال الذي يؤوي **الإرهابيين**، ومع اندلاع الحرب المفتوحة على (الإرهاب الإسلامي)، وأنه ما زال يُعرض باستمرار على مجموعة قنوات (mbc) وقناة (Fox Movies) العربية!

٧-فيلم الريشات الأربع (The Four Feathers):

في عام **٢٠٠٢** رفضت حكومة السودان منح رخصة التصوير لطاقم الفيلم على أرضها؛ لما يتضمنه من إساءة إلى السودان وشعبه وتاريخه ودينه، فنقل الطاقم معداته إلى ورزازات.

تعود قصة الفيلم إلى رواية (الريشات الأربع) للكاتب الإنجليزي (ماسون كانت) التي سبق تصويرها سينمائياً خمس مرات خلال القرن العشرين، أما المحاولة الأخيرة التي حملت اسم الرواية نفسه فقد خرجت إلى النور برؤية المخرج الإنجليزي، هندي الأصل، (شيكار كابور)، ومن كتابة كل من ميشيل شيفر و**حسين أميني** الذي يُعتقد أنه مغربي الأصل.

يتحدث الفيلم عن ملازم بالجيش البريطاني يدعى (هاري)، يتم استدعاؤه للمشاركة في الحملة العسكرية المتوجهة إلى قمع الثورة المهدية في السودان عام **١٨٨٤** ضد الاحتلال البريطاني، فيقرر تقديم استقالته لعدم اقتناعه بأخلاقية هذه الحرب ضد شعب يقاوم الاحتلال، ولكن خطيبته وثلاثة من زملائه يقدمون إليه ريشات أربعاً رمزاً للجبن، كما في الثقافة الإنجليزية، فيتراجع عن قراره ويسافر إلى السودان لينفي عن نفسه هذه التهمة، وعندما يصل إلى هناك يتنكر في زي سوداني ويعيش بالقرب من معسكر للإنجليز كي يراقب ما يحدث، فيشرف على الهلاك في الصحراء قبل أن يسارع (أبو فاطمة)؛ الممثل **محمد بوشي**، إلى إنقاذه، ومع تطور الأحداث يتحول (هاري) إلى الصف الآخر ويشارك السودانيين في معاركهم ضد الإنجليز إيماناً بقضيتهم، وعلى عكس الأفلام المشابهة التي يتعاطف فيها الرجل الأبيض مع الشعب المضطهد ضد جيشه الغازي

ويثبت في موقفه حتى نهاية الفيلم، كما في (الرقص مع الذئاب)، (الساموراي الأخير)، و(أفاتار) فإن التعاطف مع المسلمين لا يمكن أن يكتمل، إذ سرعان ما يصحو (هاري) عندما يرى جثث زملائه ممزقة في المعركة ليعود إلى صف الإنجليز أملاً بإنقاذ من بقي منهم على قيد الحياة، بل يتعاطف المسلم نفسه مع الإنجليز في حركة معاكسة لنفاجأ بجهود (أبي فاطمة) في تحرير الجندي الآخر (فيكار) من الاعتقال والتعذيب في أم درمان، ويعود (هاري) أخيراً رافع الرأس إلى خطيبته التي تنتظره في بريطانيا، ويرد إليها ريشتها فتصفح عنه من جديد.

تسبب هذا الفيلم باستياء شديد لدى الشعب والحكومة السودانيين، فمع وقوف بطل الفيلم الإنجليزي إلى جانب السودانيين وإظهار وجه العدالة جزئياً في قضيتهم، إلا أن الفيلم يحفل أيضاً بالمشاهد التي تمجد الجيش والقيم الإنجليزية على حساب السودانيين وثورتهم المهدية التي تمثل المقاومة الإسلامية في بلادهم، ولا يخلو الفيلم من الصور النمطية لكل من **المسلم الطيب** الذي يتعاون مع العدو ضد بلاده، و**المسلم الإرهابي** الذي يعذب الأسرى الإنجليز في السجون، والشعب المسلم المتخلف والبربري الذي لا يستحق التعاطف مع قضيته العادلة.

ومع كلِّ ما قيل عن إساءة الفيلم إلى المصريين أيضاً بإظهارهم في مظهر المتعاون مع العدو المحتل لقمع الثورة المهدية في السودان وإساءة بعض الضباط المصريين للثوار، فقد أجازت الرقابة المصرية عرض الفيلم بعد جدل حاد بين النقاد؛ حيث رأى المؤيدون أن الفيلم ينطلق من فكرة رفض الحرب ويسخَر من العنصرية الاستعمارية التي تتسبب في الدفع بهؤلاء الشباب إلى القتال والموت على بعد آلاف الأميال من بلادهم[١].

(١) صحيفة الشرق الأوسط، العدد ٨٩٠٣، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

وبغض النظر عن هذه المبررات، فإن تزامن إنتاج الفيلم مع بدء احتلال كل من بريطانيا وأمريكا للعراق يثير الكثير من الشكوك، وكأن رسالة ما يسعى المنتجون إلى بثها في روح الجيش المقدم على الاحتلال والشعب الذي يسانده؛ مفادها أن المعيار الأخلاقي في الحرب لا يقوم على عدالة القضية بل على الانتماء العرقي. وربما كان لهذه الدعاية (البروباغاندا) دورها في إعادة انتخاب الرئيس جورج بوش الابن لولاية ثانية وبأغلبية كاسحة، على الرغم من المعارضة الشعبية الكبيرة للحرب قبل اندلاعها، ويكشف التاريخ الحديث عن ظاهرة تعاطف الرأي العام في أمريكا وبريطانيا مع قيادته بمجرد اندلاع الحرب إلى حين عودة المحاربين سالمين حتى في حال عدم اعترافه بأخلاقيتها، وعندها لن يكلف الأمر أكثر من الاعتذار عن بعض الأخطاء، وسيبنى صرح تذكاري لضحايا الجيش، ويكرَّم من بقي منهم على قيد الحياة!

نشير أخيراً إلى أن المخرج (شيكار كابور) عاد مرة أخرى إلى المغرب؛ حيث صُور الفيلم، بدعوة من مهرجان مراكش السينمائي ليكون أحد أعضاء لجنة التحكيم في دورته السابعة عام ٢٠٠٧!

٨- **فيلم جسد الأكاذيب** (Body of Lies):

يحمل هذا الفيلم الذي أنتج سنة ٢٠٠٨، اسم رواية الكاتب والصحفي (ديفيد إغناتيوس) (جسد الأكاذيب)؛ وهو صاحب عمود شهير في صحيفة واشنطن بوست، ويبدأ بمشهد لثلاثة شباب باكستانيين يشكلون خلية (إرهابية) في مانشستر ببريطانيا، وهم ينتظرون مداهمة متوقعة من قبل القوات البريطانية، ويظهر في الوقت نفسه قائدهم على الشاشة مهدداً بتكرار حادثة التفجير الأخيرة التي قاموا بها في (شيفيلد) ببريطانيا رداً على حرب أمريكا على الإسلام. وبمجرد دخول عناصر القوة إلى منزلهم يكبّر الشباب بأعصاب هادئة ودم بارد، ثم يسمي أحدهم بالله ويضغط

على زر القنبلة لتنفجر بالجميع، في دلالة على أن الموت عند هؤلاء هو مجرد انتحار للهروب من تحمل المسؤولية.

المشهد التالي يمهد للإيديولوجية التي يؤمن بها صانعو هذا الفيلم، حيث نسمع شرحاً مفصلاً للقضية وأبعادها من وجهة نظر ضابط المخابرات الأمريكي (إد هوفمان)؛ النجم رسل كرو. ومفادها أن الناس تعبوا من مبررات كل من الأمريكيين والمتطرفين الإسلاميين، ومع أن العمليات ضد الأعداء في زيادة فإنه لم ير في الحقيقة أي تقدم، بل أصبح الأمريكيون في مواجهة (تكتل عالمي) مما يتطلب عملاً مستمراً ودؤوباً. ثم يشرح آلية عمل العدو الذي قرر أن يعيش في الماضي ويتصرف كما في الماضي حتى لا يراه الذين يعيشون في المستقبل، فلا يستخدم المتطرفون وسائل الاتصال الحديثة بل يعتمدون على التواصل الشفهي وجهاً لوجه ثم الاختفاء وسط الزحام. وتبلغ السذاجة مداها عندما يرى أن الأعداء لا يريدون التفاوض فغايتهم هي أن يعلم الناس بشأنهم، ورسالتهم تقوم على خيارين فقط: «إما أن تعتنقوا ديننا أو تموتوا»، وينتهي التحليل مع التأكيد على أن الحقيقة ليست معقدةً على الإطلاق، وأن الأعداء ينتظرون من حماة الحضارة أن يغمضوا أعينهم دقيقة واحدة فقط ليغيروا العالم بأسره!

تدور بقية الأحداث بين الشرق الأوسط وواشنطن، ويتولى مهمة العمل الميداني عميل الاستخبارات الأمريكية (CIA) (روجر فيرِس)، ويقوم بدوره النجم ليوناردو دي كابريو. وتكون البداية مع عميل عراقي اسمه (بسام)؛ الممثل اليهودي أوسكار إيزاك، يساعده في جمع المعلومات وقتل المقاومين، وفي إحدى العمليات الجريئة يُقتل (بسام) وتهبّ قوة أمريكية لإنقاذ الشاب الأمريكي دون اكتراث للعميل العراقي وسط ذهول (فيرِس).

تتواصل التعليمات من قائده (إد هوفمان) الذي نراه طوال الفيلم وهو يراقب (فيرِس) من مكتبه في قيادة المخابرات الأمريكية في (لانجلي- فيرجينيا) عبر الأقمار الصناعية دون أن يخفى عليه شيء! ويكلفه بمهمة استخبارية جديدة في الأردن، تقضي بتعقب أحد قادة تنظيم القاعدة واسمه (السليم) واغتياله، فيتولى منصباً جديداً في السفارة الأمريكية في عمّان لنكتشف أن السفارة لا تختلف كثيراً عن أي مقر للمخابرات، وأنها تتمتع بصلاحيات واسعة على أرض الأردن!

يلتقي (فيرِس) بضابط الاستخبارات الأردني هاني سلام؛ الممثل البريطاني مارك سترونج، ويدور بينهما حوار يكشف فيه (فيرِس) عن ثقافته قائلاً: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم»، فيهز هاني رأسه مؤيداً ويقول: (في دار الحرب)، ويتفق الاثنان على أنهما في صف واحد. ثم يكشف هاني لصديقه الأمريكي عن أساليب التعذيب التي يستخدمها في التحقيق مع المتطرفين للوصول إلى (السليم)، كما يصطحبه في رحلة إلى الصحراء ليستعرض مهارته في توظيف لص سابق؛ عمر كرامي ويجسده الممثل الفلسطيني **قيس ناشف**، تحوّل من السرقة إلى التطرف ليصبح في النهاية عميلاً للمخابرات من داخل خلية (السليم)، ونفاجأ بأن كل ما يحتاج إليه الأمر لتحويل شاب فلسطيني نشأ في المخيمات إلى عميل هو منحه منزلاً لائقاً يعيش فيه مع أمه.

تنفجر قنبلة أخرى في سوق للزهور في أمستردام- هولندا، في حين يتابع (السليم) أحداث الانفجار عبر نشرات الأخبار من صالون منزله الفخم في عمّان، في صورة نمطية لقادة هذه التنظيمات الأقرب إلى رؤساء المافيا، فهم يسكنون قصوراً فخمة ويركبون سيارات فارهة ويحيط بهم الحرس والأتباع ويدخنون السجائر، بل نسمع عن أحد عناصر المخابرات الأمريكية تصحيحاً لمعلومات (فيرِس) يقول فيه: إن المتطرفين

في الأردن ليسوا كزملائهم في العراق، فهم يشربون الخمر ويرتكبون الفواحش! وبذلك تتسع دائرة الصورة النمطية لأعداء الغرب في ذهن المشاهد، لتشمل أطيافاً أخرى غير تقليدية من المسلمين. ثم نستمع لاحقاً إلى شرح موجز عن شخصية (السليم) التي رسمها مؤلف القصة بمواصفات تضمن أكبر قدر من التنميط المجحف، فهو رجل سوري ينتمي إلى عائلة متوسطة الحال قامت السلطات بتصفيتها دون أن نعرف السبب، ففر إلى السعودية ودرس فيها الفيزياء والهندسة ثم أكمل دراسته في عمان وانتمى إلى حركة حماس!

يقرر (فيرِس) إحداث خلية إرهابية وهمية للإيقاع بالسليم، يتم من خلالها توريط مهندس أردني متدين (عمر صدّيقي)؛ الممثل الفلسطيني **علي سليمان**، في انفجار مدبر بتركيا، فيبتلع (السليم) الطعم ويتصل بصدّيقي للتنسيق معه في عمليات مشابهة، ونفاجأ بأن خلية (السليم) أكثر كفاءة من جميع أجهزة المخابرات عندما تكتشف زيف الخطة، فتقتل المهندس البريء على طريقة المافيا قبل أن يتمكن أحد من إنقاذه.

وفي محور آخر يقع (فيرِس) في حب (عائشة) الممرضة الأردنية من أصل إيراني؛ الممثلة الإيرانية **غولشفته فرحاني**[١]، التي يتم من خلالها تنميط العائلة العربية حيث يُراقب سلوك الفتاة. وعلى مائدة الغداء، نكتشف غضب الأخت الكبرى؛ الممثلة المغربية **لبنى عزبل**، من احتلال

(١) تسببت مشاركة (فرحاني) في هذا الفيلم بمشكلة مع السلطات الإيرانية لعدم التزامها بالتعليمات المفروضة على الممثلين الإيرانيين عند مشاركتهم في أفلام أجنبية، مما أدى إلى منعها من السفر في العام نفسه إلى هوليود للمشاركة في فيلم آخر، علماً بأننا لم نسمع بوجود مثل هذه التعليمات في الدول العربية [نقلاً عن صحيفة (الجمهورية) المصرية]، كما أدى ظهورها في حفل افتتاح الفيلم في نيويورك، كاشفة الرأس وهي ترتدي ملابس قصيرة، إلى إثارة الكثير من الجدل داخل إيران.

الأمريكيين للعراق، في حين تبدو عائشة أكثر سذاجة وحمقاً، وهو بالضبط ما يناسب أي عميل استخباري في العالم!

ويُستدرج (فيرِس) عبر عائشة إلى داخل سورية، فيجد نفسه أمام (السليم) في أحد أوكاره، ويبدأ سيل الصور النمطية المعروفة من تعذيب وحشي على يد الشباب الملتحين والآيات القرآنية التي تتلى بطريقة مثيرة للسخرية، ثم يقدم الفيلم رسالته على لسان (فيرِس)؛ فآيات القتال يتم تفسيرها من قبل المتطرفين على نحو خاطئ، وشيوخ الإرهاب ليسوا سوى رأسماليين يصنعون جيوشاً من العبيد عبر أموال البترول، وسيأتي اليوم الذي يختفون فيه جميعاً في رماد التاريخ. وقبل أن يُذبح (فيرِس) أمام الكاميرا تقتحم المخابرات الأردنية بقيادة هاني المقر فيُنقذ في اللحظة الأخيرة ويُعتقل السليم.

وبالرغم من المغالطات التاريخية والدينية والمنطقية الكثيرة في هذا الفيلم[1]، لا بد لنا من الإشارة إلى أثر العولمة والانفتاح الذي نعيشه اليوم في تغير مواقف المثقف الأمريكي من حكومته الذي ترك بصمته بشكل ما على هوليود، إذ لم تعد أمريكا منزهة عن الخطأ حتى في عين

(١) سنكتفي بمناقشة مغالطة واحدة عندما يتلو أحد المتطرفين، وهو ممثل مصري، الآية الكريمة: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢] مع استبدال كلمة (إيمان) بكلمة (أيمان)، لتترجم الآية إلى المشاهد الغربي على أنها تأمر بقتل من لم يكن مؤمناً! مع أن الآية وردت في حق المشركين الذين نقضوا الأيمان أي العهود، وتختتم الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾، وقد علّق المفسر البيضاوي كلمة لعل بكلمة قاتلوا، أي "ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه [ويقصد الخيانة ونقض العهود]، لا إيصال الأذية لهم"، ولكن الممثل المصري يضيف من جعبته خاتمة أخرى للآية تقول: هذا هو جزاء الكفرة والمشركين!.. فأي ضريبة أقبح من هذه لوصول هذا الممثل المغمور إلى هوليود!

المخرج (ردلي سكوت) نفسه الذي أخرج في عام ٢٠٠١ فيلم (**سقوط الصقر الأسود**) بكل ما فيه من دعاية فجة (بروباغاندا)، وهي ظاهرة امتدت إلى العديد من الأفلام الأخرى التي أنتجت في ظل (الحرب على الإرهاب) مثل (**سيريانا**)، (**المنطقة الخضراء**)، (**التسليم**) و(**إنذار بورن**). وقد صدّر (ردلي سكوت) هذا الفيلم بعبارة ذات مغزى للكاتب (و. هـ. أودن) يقول فيها: «أنا وعامة الناس نعلم تماماً ما يتعلمه الأطفال في المدارس.. الذين يتعرضون للشر يردون بشرّ مثله»، وجسّد (سكوت) البيروقراطية الأمريكية في فيلمه ببراعة مع كل مرة يواجه فيها (فيرِس) الموت أو يحتاج إلى دعم، فيتصل بقائده في واشنطن عبر الهاتف النقال، في الوقت الذي يستمتع فيه هذا القائد بملاحقته عبر القمر الصناعي أو يمارس حياته اليومية مع أطفاله بهدوء شديد. كما قدم لنا المخرج عميلَ المخابرات الأمريكي في صورة متواضعة بعيداً عن أسطورة جيمس بوند، فهو إنسان عادي قابل للخطأ والغضب واليأس، قد يتمرد على قادته ويأسف لقتل الأبرياء ويقع في حب فتاة عربية.

ولكن التفاؤل بهذه الظاهرة سيقف بنا عند حدود هامش النقد المتاح في هوليود، فقد يُسمح أحياناً بنقد بيروقراطية قادة الولايات المتحدة وما يقعون فيه من أخطاء، ولكن ثمة خطان أحمران لا يمكن لأحد أن يقترب منهما، الأول هو الإطار العام للسياسة والثقافة الأمريكية، التي لا تحكمها توجهات حزبية أو أخطاء تُرتكب في هذه الحرب أو تلك، والثاني وهو الأهم: الصهيونية وكل ما يتعلق بها، سواء وجود (إسرائيل) أو سياساتها أو الديانة اليهودية أو أثر ضغوط اللوبي الصهيوني على أي سياسة ما في العالم.

ومن هذا المنطلق يمكن قراءة النهاية غير التقليدية للفيلم عندما يرفض (فيرِس) العرض الذي يقدمه رئيسه (هوفمان) بالجلوس في مكتب مريح

بعيداً عن المشاكل معلناً قراره بالبقاء في (الشرق الأوسط) الذي يحبه، ومع استنكار رئيسه حيث «لا أحد يحب الشرق الأوسط» يصرّ (فيرِس) على الانسحاب من هذه الحرب القذرة متمرداً على الطرفين معاً، ويفضل العيش مع صديقته الساذجة بعيداً عن صراعات السياسة!

بقي أن نذكّر بأن معظم مشاهد الفيلم صُوّرت بين الرباط وورزازات في المغرب، وذلك بعد أن رفضت الأردن طلب التصوير على أرضها لما يتضمنه الفيلم من إساءة مباشرة إلى السلطات والشعب، وبعد أن رفضت أيضاً كل من أبو ظبي ودبي الطلب نفسه[١]، أما قائمة الممثلين فتضم المزيد من الأسماء العربية أخرى ومنها: **جميل خوري، علي خليل، هدى زبيط، عمر بردوني، عبد الرحيم كشمير، سامي سمير، رامي حلمي وشريدي جبرين**، في حين رفض الفنان السوري **غسان مسعود** المشاركة في الفيلم، مع أنه قد سبق له التعاون مع المخرج نفسه في فيلم (**مملكة السماء**)[٢]، لذا أُسند دور الشيخ (السليم) إلى الممثل الإسرائيلي (علون أبو طبول)[٣]، وهو من مواليد الأرض المحتلة عام **١٩٦٥**، وسبق أن أدى دور جندي إسرائيلي في فيلم (**ميونخ**) عام **٢٠٠٥**. وقد نتساءل هنا عن المبررات التي تسهل على بعض الممثلين العرب التعاون مع ممثل "إسرائيلي"، وخصوصاً عندما يطلب المخرج من (**عمر بردوني**) أداء دور

(١) جريدة الحقيقة الدولية، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٨.

(٢) نقلاً عن موقع شام برس الإلكتروني.

(٣) أجد نفسي مضطراً للإشادة ببراعة الممثل (الإسرائيلي) في تقمص هذه الشخصية على نحو مغاير للصورة النمطية المعتادة، وهي الصورة التي كرّسها الممثلون العرب مثل عادل إمام وأحمد بدير قبل غيرهم من الأمريكيين و(الإسرائيليين)، حيث يختلط الأداء المسرحي بالسينمائي ويفرط الممثل في مبالغاته المليودرامية غير المقنعة، وكأنه يسفر عن حقد شخصي يدفعه للتمادي في السخرية على حساب جودة العمل وواقعيته.

القائم بأعمال (السليم) مع كل ما يتطلبه الدور من احترام وتوقير لشيخه المفترض!

٩- **فيلم الجنس والمدينة ٢** (Sex and the City II):

في ظل التساهل المتزايد لرقابة السلطات المغربية على طلبات تصوير الأفلام الأجنبية أصبح هذا البلد العربي الجميل البديلَ الأمثل للدول العربية الأخرى التي يصعب التصوير فيها، فبعد انتقال (**سيريانا**) من بيروت إلى الدار البيضاء، و(**سقوط الصقر الأسود**) من مقديشو إلى ورزازات، و(**جسد من الأكاذيب**) من الأردن إلى الرباط وورزازات، و(**قواعد الاشتباك**) من صنعاء إلى ورزازات أيضاً، بدأ فريق (**الجنس والمدينة ٢**) في آب/أغسطس **٢٠٠٩** بالعمل على تحويل مراكش إلى أبو ظبي بعد رفض السلطات في كل من دبي وأبو ظبي طلب التصوير.

ويبدو أن الاحتجاجات الواسعة التي واجه بها المراكشيون فريق العمل لم تتمكن إلاَّ من تعطيله مؤقتاً، مما ضاعف مدة التصوير عدة أضعاف، كما لم تمنع اعتراضات الصحافة المغربية الفيلمَ من الوصول إلى دور العرض العالمية في أيار/مايو **٢٠١٠**، وبكل ما يحمله من إساءة وسخرية وجنس.

الفيلم بجزأيه الأول والثاني ليس إلا امتداداً للسلسلة التلفزيونية الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه، واستمر عرضها لخمسة عشر عاماً، وتدور القصة حول تفاصيل الحياة العاطفية والجنسية لأربع سيدات من نيويورك في إطار كوميدي، في حين اختار المنتجون في الجزء الثاني انتقال بطلات الفيلم إلى أبو ظبي لقضاء العطلة، حيث تبدأ هناك المفارقات بمحاولتهن التأقلم مع البيئة المحتشمة للمدينة، ولا يفوّت الفيلم أي فرصة للسخرية من التقاليد العربية والإسلامية، والتي رأى البعض أنها تأتي في سياق الحملة المحمومة لإطفاء جذوة التقدم في دولة

الإمارات، حيث لا يستسيغ العقل الغربي اقتران الإسلام والحضارة في مكان واحد، خصوصاً عندما تنطلق الأحكام من منظور المركزية الغربية، فيُصبح المعيار الأخلاقي والمنطقي للسلوك هو التوافق مع ما يهواه الشارع الأمريكي وما يستحسنه لبقية الناس على هذا الكوكب، ويغدو التحدي الأكبر للفيلم في نقل قصة تحمل اسم (الجنس والمدينة) من نيويورك إلى أبو ظبي[١]!

أفلام أخرى:

إضافة إلى النماذج السابقة، نذكر أيضاً بعض الأفلام المسيئة التي صُورت كلياً أو جزئياً في المغرب، وهي:

- فيلم (**لورنس العرب**) الذي سبق الحديث عنه، وتم تصوير مشاهده بين المغرب والأردن.

(١) في لقاء أجري مع بطلة الفيلم (سارة جيسكا باركر) لبرنامج (سكوب) على قناة (mbc) بتاريخ ٣/٦/ ٢٠١٠، كشفت (باركر) عن إعجابها الشديد بكل ما رأته عن قرب من مظاهر الإسلام والتقاليد الشرقية أثناء التصوير في المغرب، بدءاً من روائح التوابل ووصولاً إلى الصلوات الخمس، مع أن الصورة التي قدمتها (باركر) مع زميلاتها في الفيلم للشرق الإسلامي تبدو مختلفة تماماً، فحتى القهوة العربية التي ترمز لكرم الضيافة بدت لهن في غاية المرارة والقرف. فهل نحن إذن أمام مؤامرة تمنع عرض أي صورة حسنة لهذه البلاد، حتى عندما تكون حقيقة يؤمن بها ممثلو هوليود أنفسهم؟ وإلى متى سيتقبل الهوليوديون هذه الازدواجية بين ما يلمسونه عن قرب وما يُفرض عليهم تجسيده على الشاشة؟ وإذا كان هذا الموقف يذكرنا بتجربة مشابهة مر بها النجم الراحل (مارلون براندو) في أثناء وجوده في المغرب أيضاً، وسبق الحديث عنها في هذا الكتاب. فلماذا لا تُستغلّ فرصة وجود هؤلاء النجوم في دول عربية ومسلمة واحتكاكهم بأهلها لتقريب وجهات النظر، وبالطريقة نفسها التي يتأثر بها العرب عندما ينتقلون إلى هوليود وإلى درجة التخلي عن هويتهم؟!

- فيلم (**جوهرة النيل**/ The Jewel of the Nile) من إنتاج سنة **١٩٨٥** وبطولة الممثل اليهودي (مايكل دوغلاس)، ويظهر فيه العرب شعباً همجياً بدائياً يحكمهم ديكتاتور متوحش، وتكرر عرضه على إحدى قنوات (mbc).

- فيلم (**مملكة السماء**) الذي تعرضنا له بالتفصيل في هذا الكتاب.

- الفيلم الفرنسي (**علي بابا والأربعون حرامي**) الذي صُور كاملاً على أرض المغرب سنة **٢٠٠٧**.

- فيلم (**الخائن**/ Traitor) الذي قدم فيه بعض الممثلين المحليين صورة مسيئة إلى المسلمين الأمريكيين، وقد تحدثنا عنه سابقاً في الكتاب.

تونس.. المحطة الإفريقية الثانية

تحتل تونس المرتبة الثانية في استقطاب صناع الأفلام العالميين في المنطقة العربية، وترتبط بدرجة أكبر بالمنتجين الأوربيين مقارنة بنظرائهم الأمريكيين، ويعود الفضل الأول في ذلك إلى رجل الأعمال **طارق بن عمار**، الذي سبق التعرض لتجربته السينمائية والإعلامية في الفصل الثالث من الكتاب.

بدأ نشاط تونس الإنتاجي العالمي عندما أسس بن عمار شركة (كارتاغو فيلمز) سنة **١٩٧٥** وتمكن في السنة نفسها من تصوير الفيلمين الكبيرين (**ستار وورز**) لجورج لوكاس و(**غزاة التابوت المفقود**) لستيفن سبيلبرغ في تونس، ثم أتبعهما بفيلم (**القراصنة**) لرومان بولانسكي الذي صوّر بأكمله في تونس في نهاية الثمانينيات.

انشغل بن عمار بعد ذلك بتوسيع إمبراطوريته الإعلامية في أوربا وعقد الكثير من عقود الشراكة والتعاون مع كبار رجال الإعلام والإنتاج

السينمائي في العالم؛ مثل رئيس الوزراء الإيطالي (برلوسكوني) والأمريكي المعروف بميوله الصهيونية (روبرت مردوخ)، ليعود في عام ٢٠٠١ إلى الإنتاج السينمائي مع فيلم (**امرأة قاضية**) مع المخرج الأمريكي (برايان دي بالما)، حيث أسس في العام نفسه بالقرب من العاصمة أول مدينة سينمائية تونسية بمواصفات عالمية، وتتضمن المدينة ستة استوديوهات ضخمة ومرافق أخرى تحتل بمجموعها مساحة قدرها ١٢ هكتاراً، وجاء تأسيسها في خطوة مكملة لمشروع مشترك بين بن عمار و(برلوسكوني) يحمل اسم (إمبريوم).

يأخذ النقاد على بن عمار أن جميع أفلامه التي صُورت في تونس لا تحمل أي بصمة عربية، كما لا تشير من قريب أو بعيد إلى أي قضية تهم سكان المنطقة، ففي إجابة عن سؤال طرحه الناقد محمد رضا على بن عمار حول غيابه عن الواجهة العربية وعدم اهتمامه بمساعدة السينمائيين العرب، قال بن عمار: «كلٌّ له دوره الذي يحسن القيام به. لا أستطيع أن أنتج أفلاماً عربية أو مساعدتها؛ لأن هذا ليس الدور الذي أنتهجه. الذي أستطيع القيام به هو أن أقدم نفسي بوصفي عربياً مثقفاً وجاداً وصادقاً وناجحاً إلى الغرب، وفي هذه الآونة بالذات، هذا هو الأمر الأكثر أهمية عندي»[(١)]. وقد يعني ذلك أن الأفلام العالمية التي ستصوَّر في تونس خلال المستقبل المنظور لن تخدم القضايا التي تهم العرب والمسلمين، ولن تتعدى كونها أعمالاً تجارية مربحة تبحث عن أقل التكاليف على أرض تونس، خصوصاً أن الصناعة السينمائية العالمية في تونس قد أصبحت كلها في قبضة هذه المجموعة بعد توقف الشركة التونسية للإنتاج والتوزيع (الساتباك) عن العمل منذ عقود.

النقد لا يتعلق هنا بعدم اهتمام المنتجين ورجال الأعمال بالقضايا

(١) الشرق الأوسط، العدد ٨٦٢٧، ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

العامة، فالعمل في صناعة الأفلام يتعدى المجال التجاري البحت، ويدخل في صميم التأثير الثقافي والسياسي وإعادة تشكيل الرأي العام. لذا فإن اقتصار مفهوم النجاح عند المنتجين على تحقيق أعلى الإيرادات سيؤدي بطبيعة الحال إلى مرور العديد من الأفلام الهوليودية التي لا تقف على الحياد، فضلاً عن تلك التي تسيء إلى قضايانا وتاريخنا وديننا، ويشهد الواقع على ذلك.

ففي أول إنتاج هوليودي في تونس؛ اجتمع كل من المنتج والمؤلف (جورج لوكاس) والمخرج (ستيفن سبيلبرغ) والممثل (هاريسون فورد) لإنتاج فيلم (غزاة التابوت المفقود) وهو الجزء الأول من سلسلة (إنديانا جونز) الشهيرة، وتكلَّف إنتاج الفيلم ١٨ مليون دولار وحصد أرباحاً تقدر بنحو ٢٣٠ مليون دولار وفقاً لأرقام سنة ١٩٨٩، ونظراً لهذا النجاح فقد تابع فريق الفيلم إنتاج ثلاثة أجزاء أخرى عُرض آخرها سنة ٢٠٠٨.

تدور الأحداث الافتراضية للفيلم في عام ١٩٣٦ حول بحث النازيين الألمان عن (تابوت العهد) المفقود، والذي يؤمن اليهود بأنه يحمل ألواح التوراة. إذ تقول الأسطورة بأن الجيش الذي يتقدمه هذا التابوت المقدس سوف يكتب له النصر.

وقبل أن يعثر النازيون عليه؛ يُكلَّف عالم الآثار الأمريكي (دكتور هنري جونز)، والمعروف باسم (إنديانا)، بالمسارعة إلى إيجاده عبر طريق طويل ومليء بالمغامرات ينتهي به إلى القاهرة. وبفضل ذكائه وقوّته يعثر الدكتور جونز على التابوت الذي ظل مفقوداً لآلاف السنين في إحدى المغارات الفرعونية، ثم يدخل في مغامرة أخرى عندما ينتزعه النازيون منه بالقوة، ويتناوب كل من الدكتور جونز والجيش النازي المدجج بالسلاح على الاستئثار بالكنز، إلى أن يتمكن البطل الأمريكي بمفرده من إنقاذ حبيبته وكنزه معاً، وعندما يقع كلاهما في أسر النازيين ويُفتح التابوت تتولى

المعجزة مهمة إنقاذهما، فتخرج الأشباح والنيران لتقضي على الجيش النازي كله، في الوقت الذي تتمزق فيه قيود البطلين ويخرجان من الزوبعة دون أن أي خدوش، وتنتهي القصة بعودتهما مع الكنز سالمَين إلى أمريكا.

وكما هي عادة أفلام الحركة في تلك المرحلة فالفيلم قائم برمته على فكرة تمجيد البطل الأمريكي وتحقير الشعوب الأخرى، فالدكتور جونز يجمع في شخصيته كلاً من الذكاء، العلم، القوة، الشجاعة والوسامة معاً، في مقابل الصورة النمطية للنازي الأحمق، المتعصب، الخائن والقبيح. وتُعرض هذه التناقضات جميعها على خلفية الصورة النمطية الأخرى المعتادة للعربي المسلم، والذي لا يستحق أكثر من بعض الأدوار الهامشية لملء فراغات الأحداث، فهو إما عميل للنازيين يُكلَّف بوضع السم في طعام البطل، أو شحاذ عجوز يتوسل إلى البطل طلباً لبعض النقود، أو عامل بسيط يتلقى الأوامر من السيد الأمريكي للحفر والبحث عن الكنوز، أو مقاتل فاشل يعجز عن صد لكمات البطل الأمريكي، أو حتى مهرج يستعرض مهاراته بالسيف قبل أن ينهي البطل الأمريكي المبارزة من الجولة الأولى بطلقة من مسدسه. كما تملأ حشود (الكومبارس) العرب الشاشة في مشاهد أخرى بهدف تأييد البطل الأمريكي المخلص في كل بطولاته، ولم يحظ أي ممثل عربي حتى بدور ثانوي يسمح بظهور اسمه على الشاشة!

أما الرسالة الأهم في الفيلم من وجهة نظرنا فتبدأ من اختيار مصر مخبأً للتابوت المفقود؛ للتذكير بنظرية غزو الفراعنة للقدس والاستيلاء على التابوت، ثم دفنه في مخبأ سري يحفل بالرموز الهيروغليفية والتماثيل الفرعونية في مدينة تانيس، ثم دمج الأعداء من ألمان وعرب معاً في مكان واحد لهزيمتهم، فما إن تُتلَ الصلوات بالعبرية ويُفتح التابوت

المقدس حتى تتدخل القوى الإلهية وتنشق السماء لتعصف الرياح والأشباح بالأشرار النازيين، ولا ينجو سوى البطلين ليقوما بمهمة نقل الكنز السماوي إلى أمريكا، حيث يُحفظ بطريقة سرية في مستودعات الجيش الأمريكي الذي بات الحامي الرسمي لـ (شعب الله المختار)![1].

في مثال آخر؛ تمكن البعض من إقناع منتجي فيلم (**المريض الإنجليزي**) الشهير بتصوير الكثير من مشاهده في تونس سنة **١٩٩٧**، دون الالتفات إلى ما تحمله تلك المشاهد من إساءة مقصودة للعرب والإسلام، فضلاً عما يحفل به الفيلم، الذي حصد تسع جوائز أوسكار، من مغالطات تنم على السذاجة، إذ يفترض أن تدور بعض أحداثه في القاهرة خلال الأربعينيات، ولما كانت هوليود لا تهتم عادة بالتفاصيل عندما يتعلق الأمر بالعرب، فإن بيئة الفيلم لا تشير من قريب أو بعيد إلى القاهرة حيث يضع السكان على رؤوسهم القبعات المغربية، في حين تقام صلاة الجماعة في وقت ما زال الأذان يرفع فيه!

والأهم من ذلك، أن تُسنَد مهمة قطع إصبع أحد المرضى إلى ممرضة محجبة، تنفيذاً لأوامر ضابط نازي يذكرها بأن الأمر عادي بالنسبة إليها، لأن شعبها كان سيقطع يدها في حال ارتكابها فاحشة الزنا (!).. وهكذا تتحول الممرضة المسلمة بحجابها من ملاك للرحمة إلى كائن متوحش، بالتوازي مع الصورة المقابلة للممرضة الإنجليزية في نبلها وحسن معاملتها، فضلاً عن جمالها الذي يساعد المشاهد على المقارنة اللاشعورية بين الطرفين!

---

(١) يعد ترشيح هذا الفيلم لعشر جوائز أوسكار من أكبر مهازل هذه المسابقة في تاريخها، فمن غير المعتاد أن يرشح فيلم تجاري ترفيهي لجائزتي أفضل فيلم وأفضل مخرج، حتى إن لم يفز بهما، ولكن رسالته العنصرية الفجة سمحت له بالحصول على ست جوائز أخرى، وهي أفضل مؤثرات صوتية ومؤثرات مرئية ومونتاج وصوت وموسيقى وإخراج فني.

الأردن.. جهود حثيثة للمنافسة

يعود تاريخ العمل السينمائي في الأردن إلى بدايات القرن العشرين عندما اختار بعض صانعي الأفلام الغربيين الأردن لتصوير أفلامهم، مستفيدين من تنوع المواقع الجغرافية بين الآثار والصحاري والغابات والبحر الميت، وكانت النقلة النوعية مع فيلم (لورنس العرب) الذي صُور الكثير من مشاهده في وادي رم والبتراء عام ١٩٦٢.

وبعد إعلان إدارة بوش الحرب على (الإرهاب) واندلاع حربي أفغانستان والعراق، أصبح (الشرق الأوسط) موضوعاً لعشرات الأفلام العالمية سواء الأمريكية أو الأوربية أو حتى الهندية، وتعززت بذلك مكانة الأردن على خارطة صناعة الأفلام لما تقدمه من بيئة مشابهة، على وجه الخصوص، للمدن العراقية.

ولهذا الغرض تم تأسيس **الهيئة الملكية الأردنية للأفلام** سنة ٢٠٠٣ لتقوم بمهمة الإشراف والمتابعة والتدريب، وقدمت السلطات أيضاً العديد من التسهيلات لاستقطاب صناعة السينما العالمية، بوصفها أحد أشكال الاستثمار الذي يدر على البلاد الملايين من القطع الأجنبي[١]، ويوفر فرصاً جيدة للعمل ويعزز صناعة السينما المحلية، وكان من بوادر هذا الاهتمام قيام المخرج الراحل مصطفى العقاد بزيارة للأردن سنة ٢٠٠٤ بحثاً عن التمويل والدعم لفيلمه الذي لم يكتمل عن صلاح الدين.

في عام ٢٠٠٥، أثارت الهيئة الملكية غضب النقاد لسماحها بتصوير

(١) قد تصل مكاسب الأردن من تصوير أحد الأفلام ذات الميزانيات الضخمة إلى ٢٤ مليون دولار، وتتوزع على عائدات القطاع السياحي والطيران وأجور العاملين وغيرها، كما تسوّق بعض الأفلام للمناطق السياحية التي يتم التصوير فيها على نحو غير مباشر.

obeikandl.com

الفيلم (الإسرائيلي)(**منطقة حرة**/ Free Zone) للمخرج (أموس جيتاي)[١]، الذي يحكي قصة سيدتين تنطلقان من تل أبيب إلى المنطقة الحرة في الأردن المتاخمة لحدود العراق والسعودية في سيارة أجرة، وتقوم بدورَي البطولة كل من الإسرائيلية (حنة لازلو) (حنة)، والأمريكية من أب إسرائيلي (ناتلي بورتمان) (ربيكا).

وخلال الطريق من غرب الأردن إلى شرقه لا تكاد السيارة تمر بمظهر حضاري واحد، بل يملأ المخرج أرض الأردن باللاجئين الفلسطينيين لتذكيرهم بأنه الوطن البديل. كما تمتلئ الصحاري الأردنية بالجِمال وقطعان الماشية التي يرعاها البدو، مع تذكير السائقة (الإسرائيلية) حنة بأن الفلسطينيين يعملون داخل بيوت زراعية زجاجية في بلدها (إسرائيل)، وأن عائلتها كانت تزرع الورود في صحراء النقب لتصديرها إلى أوربا، في تكرار لأسطورة انقلاب صحراء فلسطين إلى جنة على يد المهاجرين اليهود!

وتستمر سلسلة التنميط والدعاية مع وصول السيارة إلى المنطقة الحرة والتقاء (حنة) بالسيدة الفلسطينية (ليلى)؛ الممثلة الفلسطينية المقيمة في فرنسا **هيام عباس**، للمطالبة بمستحقات زوجها المالية، حيث يقوم (الإسرائيلي) بصناعة سيارات مصفحة حسب الطلب ليتولى الفلسطيني مهمة بيعها إلى كبار الشخصيات في العراق، وعندما يتساءل المُشاهد عن سبب تولي الزوجتين مهمة تصفية الحسابات المالية، يكتشف أن (الإسرائيلي) تعرّض لهجمة (إرهابية) من الفلسطينيين في أثناء زيارته إلى النجف، أما الثاني فهو منشغل بتورط ابنه الشاب بالانخراط في صفوف **الإرهابيين**، وهكذا يُقحم **الإرهاب** في القصة من كل الاتجاهات، ثم

(١) د. إبراهيم علوش: فيلم (إسرائيلي) ركيك صور في الأردن بالتعاون مع هيئة الأفلام الملكية، مجلة الصوت العربي الحر الإلكترونية.

يتصادف وصول السيدات الثلاث إلى قرية ليلى مع قيام **الإرهابيين** الفلسطينيين بإحراق قريتهم للاحتجاج على نسيان آبائهم حق العودة، في رسالة مفادها أن القرية التي بناها آباؤهم إثر نزوحهم إلى الأردن تكفي لتوفير كل ما يحتاجون إليه من مقومات الحياة، ولكن **التعصب** يمنعهم من الاقتناع بهذا الرزق الوفير!

لا يقتصر الاستنكار هنا على ما يتضمنه الفيلم من إساءة وتنميط، بل نتساءل عن مبررات السماح بتصويره على أرض الأردن، مع تعارض رسالته الواضح مع سياسة الدولة في عدم إمكان تحول أي جزء من المملكة إلى وطن بديل للفلسطينيين. مع كل ذلك؛ نجحت الهيئة في استقطاب أفلام أخرى أقل سوءاً من هذا الفيلم، بل كان لبعضها دور جيد في كشف الحقائق بعيداً عن الصور النمطية والدعاية السياسية التي اعتادت عليها هوليود. ومنذ تأسيس الهيئة تم تصوير نحو خمسة أفلام كل عام، ثم حققت قفزة أكبر في عام **٢٠٠٧** مع تصوير عشرة أفلام روائية طويلة في سنة واحدة، وكان من أشهرها فيلم (المعركة إلى حديثة) للمخرج (نيك برومفيلد)، وفيلم (**منقح**/ Redacted) للمخرج (برايان دي بالما)[١]، الذي ينتقد بشدة الحرب على العراق، ويؤدي فيه الكثير من الممثلين العرب أدواراً رئيسية ومساعدة. وقد أثار هذا الفيلم حملة مقاطعة واسعة في الولايات المتحدة، دفعت دور العرض التي يهيمن عليها أباطرة هوليود إلى تجاهله ومنعه من العرض، مما أدى إلى تكبد منتجه (مارك كوبان) خسائر فادحة حيث لم يُعرض الفيلم إلا في دور العرض التي يملكها عقاباً له على المصداقية[٢].

---

(١) ٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٨. http://www.ameinfo.com/ar-90676.html

(٢) د. إبراهيم علوش: (فيلم منقح/ Redacted): عوقب بالمقاطعة لتجاوزه خطوط هوليود الحمر حول العراق، مجلة الصوت العربي الحر الإلكترونية.

اقتبس المخرج اسم فيلمه من التنقيح الذي تجريه وسائل الإعلام الأمريكية على أخبارها، ويتحدث الفيلم عن القصة الحقيقية للجريمة البشعة التي ارتكبها جنود أمريكيون في مدينة (المحمودية) العراقية، عندما بدؤوا بالتحرش بفتاة مراهقة عراقية في الرابعة عشرة من عمرها في أثناء مداهمة منزل عائلتها عدة مرات بحجة تفتيشه، إلى أن قرروا اقتحام المنزل في وضح النهار واغتصاب الفتاة جماعياً، ثم قتل العائلة كلها وإحراق جثة الفتاة، وكل ذلك أمام عدسة كاميرا الفيديو التي يحملها أحدهم!

أثارت هذه الجريمة الفظيعة، التي حدثت بتاريخ ١٢/ ٣/ ٢٠٠٦، غضب المقاومة العراقية، ونجح بعض المقاومين في اختطاف أحد هؤلاء الجنود وقطع رأسه. وقدّم المخرج جميع هذه الأحداث في فيلمه متجاوزاً التقليد الهوليودي المتعارف عليه في تبرئة الجيش والتقاليد الأمريكية من مثل هذه «الأخطاء» التي تقدم على أنها مجرد حالات شاذة لبعض الجنود الذين لا يفلتون من المحاكمة العادلة. ومن بين الأسماء العربية التي ظهرت في الفيلم: زهرة زبيدي في دور الفتاة فرح، سهيل عبد الحسين في دور والد فرح، وسحر علول في دور مراسلة تلفزيونية.

في أواخر عام ٢٠٠٨ عادت هوليود إلى الأردن بعمل ضخم عندما اختارت شركة (دريم وركس) الأمريكية تصوير بعض مشاهد الجزء الثاني من فيلم الحركة (**المتحولون**/ Transformers) في عدة مواقع أردنية مثل صحراء وادي رم ومدينة البتراء الأثرية ومدينة السلط، وقد عوّل الأردنيون كثيراً على نجاحهم في استقدام فريق العمل للتصوير في الأردن لما سيقدمه لهم من شهرة عالمية.

ويبدو أن هذه الآمال لم تذهب سدى، إذ صُورت معظم مشاهد فيلم (**خزانة الألم**/ The Hurt Locker) في الصحاري والمدن الأردنية، وشارك نحو سبعين فنياً أردنياً في الطاقم الفني للفيلم إلى جانب نحو مئة وخمسين

ممثلاً من (الكومبارس)[١]، وهو من أكثر الأفلام التي تناولت حرب العراق ترويجاً للصورة المثالية للجيش الأمريكي المدافع عن السلام في أنحاء الأرض، ومن أكثرها تشويهاً للمقاومة المحلية لهذا الاحتلال، كما يقتصر اهتمام الفيلم على آلام الجنود الأمريكيين الذين لم يقطعوا تلك المسافات إلا لتخليص العرب «المتخلفين» من براثن الإرهاب، دون أن يخصص ثانية واحدة لآلام الشعب المحتل الممتدة لسبع سنوات حتى تاريخ عرض الفيلم، طوال مدة الفيلم التي تصل إلى ساعتين، وهو ما فوجئ به حتى الجنود الأمريكيون الذين نقلت وسائل الإعلام الأمريكية استياء بعضهم من عدم واقعيته، واعتراضهم على الصورة الملائكية التي لم يزعموها لأنفسهم.

ينقل الفيلم أحداثاً خيالية لما يتعرض له ثلاثة جنود في إحدى وحدات إبطال القنابل في الجيش الأمريكي في العراق، ويقدم قائدهم صورة طريفة للجندي الذي لا يهاب الموت بعد نجاحه في إبطال أكثر من مئة وثمانين قنبلة، وهو بالطبع إنسان مثالي في جوهره، لديه عائلة تنتظره في أمريكا، ويتعاطف مع الطفل العراقي الذي يحمل اسم (بيكهام) ويبيع الأفلام الإباحية للجنود. أما المقاومة فليست سوى جماعات إرهابية تتقن زرع القنابل في السيارات والشوارع، وحتى في جثث الأطفال بعد قتلهم وفي أجساد الآباء المساكين رغم أنوفهم!

لم يحقق الفيلم نجاحاً تجارياً في شباك التذاكر، وقد لا تكون في ذلك خسارة كبيرة نظراً لتواضع ميزانيته؛ ١١ مليون دولار فقط! كما تلقّى

(١) تُقدر مكاسب الأردن من هذا الفيلم بنحو سبعة ملايين دولار أمريكي. [مريم نصر، صانعو الأفلام في هوليود يجدون مكانهم في الأردن، جريدة الغد، ٧/ ٣/ ٢٠١٠].

الكثير من النقد للتطويل الممل وتكرار الأحداث والإيقاع البطيء، فضلاً عن افتقاره إلى الحبكة المطلوبة في أي قصة سينمائية؛ إذ يبدو أشبه بفيلم وثائقي يهدف إلى تسجيل بعض وقائع الحرب بكاميرا محمولة كثيرة الاهتزاز.

مع هذا كله، حقق الفيلم مفاجأة غير متوقعة بدخوله التاريخ عبر بوابة الأوسكار عندما أحرز ست جوائز دفعة واحدة؛ وأهمها جوائز أفضل فيلم وأفضل مخرج وأفضل نص! علماً بأنه دخل منافسة صعبة مع تسعة أفلام أخرى على جائزة أفضل فيلم بدلاً من خمسة كما كان عليه الحال في السنوات السابقة، وكان من أهم المنافسين فيلم (**أفاتار**/ Avatar) الذي حقق أعلى الإيرادات في تاريخ السينما على الإطلاق، ولكن قصة هذا الأخير كانت تدافع عن حق المقاومة ضد الاحتلال وتسخر من ثقافة الجيش الأمريكي القائلة: «سنكافح الإرهاب بالإرهاب»، ولعل هذا هو السبب الذي ذهبت لأجله الجائزة إلى (**خزانة الألم**)، ثم أضيفت إليها جائزة الإخراج لتصبح المخرجة (كاثرين بيغلو) أول امرأة تفوز بها في تاريخ الأوسكار الذي امتد اثنين وثمانين عاماً.

لم تنس (بيغلو) إهداء جائزتها إلى الجيش الأمريكي، وأن تشكر في الوقت نفسه أصدقاءها في الأردن من منصة حفل الأوسكار، كما شكر (راي بيكت) فريقه الأردني لدى تسلمه جائزة أفضل مكساج صوت. ونقلت وكالة رويترز مشاعر السعادة والاعتزاز التي صرّح بها أعضاء الفريق الأردني المشارك لدى إعلان فوز الفيلم بهذه الجوائز، علماً بأن فريق الفيلم وجّه شكره الخاص -في خاتمة الفيلم- إلى الهيئة الملكية للأفلام وإلى القيادة الأردنية.

من جهة أخرى، تُحسب للأردن دعوته إلى محاربة الصور النمطية في

صناعة الأفلام، وهي بادرة طيبة بالقياس إلى الأفلام التي تصور في دول عربية أخرى دون أدنى رقابة، وقد أطلقت لهذا الهدف الملكة نور صندوقاً بقيمة ١٠٠ مليون دولار لدعم إنتاج أفلام سينمائية رئيسية تساعد على مكافحة الصور النمطية، ويقدم دعمه على وجه الخصوص للأفلام التي تحقق هذه الأهداف ولكنها لا تحظى بفرصة النجاح التجاري[١]، كما استحقت الملكة رانيا في نهاية العام ٢٠٠٨ جائزة موقع (يوتيوب) العالمية لمحاربة الصور النمطية من خلال صفحتها الخاصة على الموقع.

الإمارات العربية المتحدة.. الوجهة الجديدة لهوليود

منذ مطلع الألفية الجديدة، تتنافس إمارتا دبي وأبو ظبي على استقطاب المنتجين العالميين لتصوير أفلامهم على أراضيهما، ويتزامن هذا النشاط -وفقاً لبعض المراقبين- مع سعي دبي إلى احتلال مركز العاصمة التجارية في المنطقة، وسعي أبو ظبي لتبوء مركز العاصمة الثقافية في الوقت نفسه.

ومن أهم ملامح النشاط السينمائي في الإمارتين تشجيع المهرجانات السينمائية المختلفة، مثل مهرجان الشرق الأوسط السينمائي في أبو ظبي، ومهرجان دبي السينمائي الدولي الذي يعد الأول عربياً والعاشر عالمياً، ومهرجان الخليج السينمائي ومسابقة أفلام من الإمارات وأوسكار السينما الهندية عام ٢٠٠٦، إلى جانب المسابقات والمهرجانات المتخصصة مثل أفلام البيئة وأفلام مكافحة الإيدز. كما تقدم سلطات الإمارتين الكثير من التسهيلات لشركات الإنتاج الفني والإعلامي لتحويل أنشطتها أو جزء منها إلى أرضهما، وتم بالفعل توقيع الاتفاقيات لإنشاء العديد من المشاريع الضخمة؛ مثل عقد الشراكة الموقَّع مع شركة (باراماونت ستوديوز) لبناء منتزه سينمائي في الإمارات، والعقود المماثلة مع شركة (وارنر بروس)

(١) ٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٨. http://www.ameinfo.com/ar-90676.html

لإنشاء منتزه ومرافق لتصوير الأفلام في أبو ظبي مع تأسيس صندوق لإنتاج الأفلام المشتركة، وكذلك العقد الموقع بين شركة أبو ظبي للإنتاج السينمائي وشركة (إنترناشيونال جيوغرافيك إنترتينمنت) لتأسيس صندوق آخر لإنتاج الأفلام.

كما نجحت الإمارات في جلب فيلمين أمريكيين كبيرين لتصوير عدد كبير من مشاهدهما على أراضيها في السنوات الأخيرة، وهما (**سيريانا**) و(**المملكة**)، اللذان سبق الحديث عنهما في فصول سابقة من الكتاب، مع الإشارة إلى ما يتضمنه كل منهما من إساءة إلى العرب والإسلام.

ومن الجدير بالذكر، أن الرقابة في الإمارات احتاجت إلى أربعة شهور لمراجعة فيلم (سيريانا) قبل إجازته[١]، ثم اشترطت حذف عدد من المشاهد مع أن اثنين منها صُورا في دبي، ففي المشهد الأول نرى حراس الحدود الأجلاف وهم يعاملون العمال الآسويين كالعبيد الذين يقفون في طوابير طويلة ويُمنعون من النطق، وعندما يتفوه أحدهم بكلمة ممازحاً أباه ينقض عليه الجنود ويوسعونه ضرباً بالبنادق!.. وقد نتفق مع طلب الأجهزة الرقابية حذف هذه المشاهد، ولكنا نتساءل عن الطريقة التي تمكن فيها صانعو الفيلم من تنفيذها في دبي دون اعتراض!

ونعيد طرح هذه التساؤلات حول فيلم (المملكة) الذي صُورت معظم مشاهده في شوارع أبو ظبي، وبكل ما تحمله تلك المشاهد من صور نمطية مسيئة للإسلام والمنطقة!

(١) ميدل إيست أونلاين، ١٧/ ٤/ ٢٠٠٦.